تعاني تراجعاً في السنوات الأخيرة..

المدرهة.. موروث يمني أصيل يعبر عن التلاحم والترابط بين الناس

تختلف المظاهر الاحتفائية المصاحبة من مكان لآخر

الموروث الشعبي اليمني متنوع وزاخر بالكثير من الأشياء والمظاهر التي يتميز بها عن أقطار وبلدان أخرى عربية كانت أو أجنبية ،وهذا التفرد والتميز هو ما أكسب اليمن سمعة حضارية بات العالم يشهد لها بذلك التميز والثراء في مجال التراث والحضارة ولعل ثراء الموروث الشعبي هو نتاج طبيعي لذلك الثراء التاريخي الضارب جذوره في أعماق التاريخ الانساني القديم والذي خلف لهذا البلد تركه هائلة من الحضارة تشمل مدناً قديمة وبقايا ممالك ودويلات شاع صيتها وبرزت في زمانها على أقرانها من الدويلات والممالك الأخرى التي تعايشت معها ولعل مملكة سبأ وملكتها بلقيس تعد أبرز مثال على تلك الحضارة التي مازالت شواهدها قائمة حتى الآن في بعض مناطق اليمن ،والتي يأتي إليها الكثير من المهتمين والمختصين بالتاريخ القديم سواء لدراستها أو التعرف عليها وزيارتها بعد أن أطلعوا في أمهات كتبهم وعلى اختلاف السنتهم وأجناسهم على عظمة المكانة التي وصلت إليها تلك الدولة اليمنية القديمة في زمن كان يعاني الكثير والكثير حتى أن القرآن الكريم ذكر قصة تلك المملكة وملكتها بلقيس وأورد قصتها مع نبي الله سليمان

استطلاع وتصوير/ عبدالباسط النوعة

وهذا إن دل فإنما يدل على عظمة المكانة وازدهار الحياة والمعيشة وحكمة القيادة التي تجلت بها الملكة « بلقيس» وإلا لماذا ذكرت في أقدم الكتب السماوية وأعظمها مكانة ورفعة ولا نريد الإطالة أكثر حول هذا الموضوع الذي وإن كتبنا فيه مجلدات لانستطيع أن نعطيه حقه كما أن مجالنا لهذا اليوم يقتصر على الموروث الشعبي وتحديداً على أحد أبرز الموروثات الشعبية التي تنفرد بها اليمن عن سائر البلدان ،هذا الموروث يرتبط ارتباطاً وثيقاً مع أحد أركان الإسلام الخمسة ولا يذكر هذا الموروث إلا عندما يذكر ذلك الركن أو عندما يحل ميقاته المعلوم ،هذا الميقات يأتينا في العام مرة واحدة فقط ويستمر لأيام متتابعة لاشك أن الجميع قد أدرك ماهية ذلك الركن الإسلامي العظيم ألا وهو حج بيت الله الحرام وما ترتبط به من مشاعر ومناسك ،حيث اعتاد الناس وتزامناً مع هذه العبادة أن يقوموا بتقليد خاص باتوا ينتظرونه بشوق وتلهف كل عام ألا وهو المدرهة ولم يأت هذه العادة من فراغ لدى اليمنيين الأوائل بل كان ابتكارها لحكمة وغاية نبيلة جداً وإنسانية خالصة كشف عنها أحد المتعايشين مع هذه العادة من أبناء صنعاء القديمة التي تحوي في كافة حاراتها بل وبعض أحواش منازلها « مداره» انتصبت منذ سنوات طويلة ولازالت على حالها حتى الآن حيث قال أحمد العلافة متحدثاً عن الهدف من إقامة هذه العادة حسبما سمعه من أباه: حدثني والدي الذي كان شغوفاً جداً بهذه العادة ومحباً لها أن الأوائل من اليمنيون ابتكروا هذه العادة لأغراض إنسانية تتمثل في إدخال البهجة والسرور في نفوس أهالي الحجيج وصرف أنظارهم قليلاً عن الخوف والجزع على من فارقهم في سفر طويل لأداء فريضة الحج فقد كان الحاج يحتاج إلى الكثير من الوقت لكي ينجز هذه الفريضة حيث تصل الفترة في ما مضى إلى شهرين فلم يكن موجوداً آنذاك إلا البغال والحمير والجمال يسافرون عليها وكان بعض الحجاج لاسيما من كبار السن لايعودون من رحلتهم تلك ويدركهم الموت وهو في الطريق فيتم دفنهم هناك ولهذا كان الأهل يخافون ويجزعون عندما يسافر أحد منهم لأداء هذه الفريضة فقد كان السفر شاقاً ومتعباً ولهذا كان الناس يتجمعون أمام منازل أهالي الحجاج ويحاولون إدخال البهجة والسرور واشغال أوقاتهم في المرح والفكاهة حتى يعود حجيجهم سالمين، وهم على هذه الحالة منذ سفر الحاج حتى عودته وحينها يشاركهم الحاج تلك الأفراح والطقوس ويقوم بالتدرُّه معهم، وكان الحاج عندما يعود يحتفل به وكأنه عريس وربما أكثر ويأتي الناس لتهنئته بسلامة عودته إلى أهله وذويه وتوفيقه في أداء هذه الفريضة وتقام الولائم والاحتفالات.

شغف .. وحب

■ الجدير بالذكر أن الأخ/ أحمد العلافة ورث حب هذه العادة من أبيه، فقد وجدناه يتدره بمفرده في مدرهة مقامة في مقشامة الفليحي صدفة ودون سابق إنذار وكان ينشد الأهازيج الخاصة بالمدرهة وولده الصغير يردد بعده غير عابهين بظلام المكان أو برودته، وهنا يؤكد «أحمد» أنه يشعر بالدفء والنشاط وهو يمارس تلك الطقوس، وهي عادة عاش معها منذ نعومة أظفاره ولا يستطيع التخلُّف عنها، صحيح أنها لا تحلو إلا في تجمّع لكن حين يتعذّر إيجاد ذلك التجمُّع لا يستطيع إلا أن يقوم بها بمفرده.

مشيراً إلى أن هذه العادة أصبحت تعاني الكثير من العوائق أهمها عدم إقبال الناس عليها كما كان في السابق، وهذا العام يمثّل الأسوأ بالنسبة لهذا الموروث التقليدي فالأزمة وانعدام الكهرباء أثّر بشكل مباشر وقوي على إقامة هذه العادة.

لا تختلف المداره التقليدية كثيراً عن المداره التي توجد في الحدائق وتخصص للأطفال خاصة بعد أن استبدلت المداره القديمة التي كانت تُعمل من الأخشاب والحبال المستخدمة من صوف الماعز والحيوانات ومن النادر جداً أن تصادف في صنعاء القديمة مدرهة قديمة قائمة على الأخشاب بل تم تحويلها إلى مداره قائمة على الحديد والسلاسل ولا يتم وضع سلاسل إلا عندما يحل الوقت لذلك في موسم الحج وبمجرد انقضاء الموسم يتم رفع السلاسل أو حتى خزنها في المنزل.

أوقات للرجال وأخرى للنساء

■ أثناء تجولنا بين حارات وأزقة صنعاء القديمة عصراً خلال الأيام الماضية كانت تتعالى بعض الأصوات من بعض الأحواش تردد أهازيج ترتبط بالحج والحجيج، ولكن تعذّر علينا زيارتها واكتشافها لأن تلك الأصوات يعود مصدرها للنساء، وهنا يقول الأخ/ سعودي العلافة – مشرف إحدى المداره أن أوقات التدره مقسمة فالصباح والعصر للنساء والليل بطوله للرجال.

وهذا ما جعلنا نحجم عن التصوير عصراً والحرص على العودة ليلاً حيث يكون الوقت المخصص للرجال ولكن تجوّلنا كثيراً في إحدى الليالي ولم نصادف إقامة أية مداره يحتفل حولها، بعض المدارة قيل لنا أنها شهدت احتفالاً قبل أيام والبعض الآخر لم تشهد أي مظهر من مظاهر الاحتفال وأخرى احتفلت بالأمس أو اليوم الذي قبله بمعنى أن ممارسة العادة أصبحت متقطعة وغير متواصلة والأصح فيها الدوام حتى يعود الحجيج إلى منازلهم.

■ يقول الأخ/ عبدالله المصلي – من أهالي صنعاء القديمة حارة الفليحي:

– كانت تنصب المداره منذ خروج الحاج وتزداد جذوتها عند العشر الأوائل من ذي الحجة حيث كانت حارات صنعاء القديمة ومنها الفليحي تشتعل حماسة ونشاطاً، لا سيما في الليل فترى أضواء اللهب تقتل الظلام وتلاعب الناس والصبيان والمدرهة قائمة والأهازيج ترافقها بأصوات مختلفة بإختلاف الأشخاص مع أن الكلمات والألحان واحدة فالألحان التي تستخدم للتدره مستمدة من التراث اليمني القديم، ولكن الأداء يختلف من شخص لآخر وحتى عند النساء مع الاحتفاظ باللحن بيد أن الكلمات قد يتم الاضافة عليها مع بقاء الأساس وعدم إخلال الكلام الجديد القديم، بل يأتي على منواله بحراً وقافية.

وقد سجل الموروث الشعبي اليمني أفضلية للنساء في هذا المجال حيث قمن بإضافة بعض الكلمات المتوازنة مع النصوص وكان الرجال يتفاجئون أحياناً بأن النصوص التي تستخدمها النساء زائدة، وقد كانت النساء يضفن هذه الكلمات على حالتين الأولى عندما يكن في استماع الرجال وتأتي لهن الإضافة يقمن بتسجيلها على الفور وإرسالها مع أحد الأقارب إلى أولئك المتدرهين من الرجال لإضافتها، أو تنتظر حتى يأتي النهار وهو وقت تدره النساء لتضفنه مع النساء أو تأتي الإضافة لإحدى النساء أثناء ترديدها للأهازيج مع بقية النساء وهناك يتم الإضافة مباشرة.

مرونة وتفاعل

■ وهذا يؤكد مدى مرونة هذا الموروث الشعبي اليمني وقابليته للتجديد والإضافة والمشاركة ويضيف المصلي هدفاً آخر لهذه العادة لا يقل إنسانية عن الهدف السابق المتمثل في إدخال البهجة والسرور لأهالي الحجيج واطمئنانهم فهو أيضاً يهدف إلى إشعار الحاج بمدى مشاركة الناس له وحرصهم عليه وتذكّرهم المتواصل به والحرص على سلامته حتى يعود.

ويضيف «المصلي»: كنا عندما نصعد على المردهة نزداد حيوية ونشاطاً ويخيل لنا أننا نطير في السماء نحلّق مع حبات ونسمات الرياح المتدفقة نحونا بفعل الذهاب والإياب نتسابق للصعود على المدرهة، ونرفض النزول لأحدهم إذا جاء دوره، وهكذا لأن الأعداد التي كانت تحضر إلى المدرهة كبيرة جداً وقد يأتي أهالي حارات أخرى إلى حارتنا لمشاركتنا التدره وقد نذهب نحن إلى حارات أخرى لمشاركتهم التدره وهنا نتعرف على بعضنا البعض وفيما بعد نتواصل أما الآن فلم يعد يعرف بعض أهالي الحارة الواحدة بعضهم فكيف بالحارات الأخرى، ولم يعد الناس يقبلون على ممارسة التدره كما كانوا وإذا أقيمت هذه الأيام فهي ربما ليوم أو يومين وساعتها قليلة وكذا الحاضرين قد يعتدوا بالأصابع، وأتذكر حتى سنوات ماضية أن الوقت كان يمر ونحن نتدره دون أن نشعر به وقد يحل الفجر ونحن نتدره صبياناً وشبّاناً وشيوخاً.

اختلاف .. وتباين

■ وأورد بعض الفروق من منطقة إلى أخرى في المدرهة حيث أوضح أنه شارك في التدره في بني حشيش وكانت المظاهر والكلمات والألحان تشابه ما هو موجود في صنعاء القديمة باستثناء الأداء، بيد أن بني حشيش وكافة المناطق المجاورة لصنعاء أدخلوا على المدرهة حاجات أخرى جعلت الاحتفال أوسع بكثير وهي استخدام الطاسة والرقصات الشعبية والهجيج التي هي تلبيس أحدهم زياً يعبّر عن الجمل أو الخيل يدور بين الناس لإدخال المزيد من البهجة والسرور وأيضاً اطلاق الأعيرة النارية، وهذا يتم عند وصول الحاج، وبالطبع في صنعاء القديمة لا يرافق المدرهة أي مظاهر وقد تدخل إذا كان للحاج أقارب حول صنعاء يدخلون ومعهم تلك العادات أما في صنعاء المدرهة وحدها تقام وهي الأصل، كذلك يتم استخدام النواقيص وهي ما يوضع على الجمال أو الخيول حيث يتم وضعها على المدرهة لإصدار الأصوات عند التدره وهذا مستخدم في صنعاء وغيرها من المناطق.

تمثيليات وأهازيج ورقصات

■ الابتكار والاضافات على هذه المظاهر الاحتفائية التي تعبر عن مدى الترابط والاحساس بين الناس متواصل ومستمر وقد وصلت أن يتم استقبال الحاج فور عودته إلى مشارف المدينة التي يسكنها والآن وكما يقول الأخ/ محمد أحمد العوامي من أهالي حارة داوود أنه يتم استقبال الحاج لدى البعض في المطار ويكون عددهم كثر حيث يجتمع الجيران مع الأصدقاء والأقارب ويكون معهم المزمار والطاسة وفور خروجه من بوابة المطار إلى الساحة تبدأ المظاهر الاحتفائية التي لا تنتهي إلا في ساعات الليل المتأخرة وعند وصول الجميع إلى منزل الحاج يزداد عدد الناس وتستمر هذه المظاهر وأداء الرقصات الفلكلورية حتى يأتي وقت حيث تذبح الذبائح وتقام الولائم ابتهاجاً بعودة الحاج ويستمر توافد الناس للسلام على الحاج والمقيل لديه وعندما يحل الليل وبعد إتمام صلاة العشاء يجتمع الجميع أمام المدرهة للتدره بما فيهم الحاج نفسه، وقد تصاحب المدرهة رقصات شعبية وبرع وطاسة وأيضاً «التمثيلية» حيث يتم تلبيس أحدهم زيّاً أما لرأس جمل أو حصان أو حتى تلبيسة زيّاً نسائياً والهدف من هذه التمثيلية هو إدخال مزيد من البهجة والسرور على الناس.

ويضيف «العوامي» أن هذه المظاهر المصاحبة بكثرة استعمالها في المناطق من صنعاء حيث حضر احتفالاً كهذا في «خولان» زوامل وتمثيليات ورقصات شعبية بالإضافة إلى الأساس وهي المدرهة.

ويؤكد «محمد» أن الاحتفال خارج صنعاء أكثر متعة وتسلية بفضل هذه المظاهر المتعددة والحضور الجماهيري الكبير الذي يشمل كافة أبناء المنطقة أو القرية دون استثناء ولا يتخلف أحد وكل يحضر من بيته ما يستطيع من طعام وفراش حيث تستمر الاحتفالات في أغلب الأحيان حتى الرابعة فجراً.

أما المدرهة في الوقت الحاضر كما يراها «العوامي» فقد اختلفت وتراجعت بصورة كبيرة حيث قال:

– لم يعد الناس يقبلون على هذه العادة ومن عام إلى آخر يخف الاقبال أكثر فأكثر، مثلاً العام الماضي شهدنا إقامة بعض المداره هنا وهناك وإن كانت ساعاتها قليلة إلا أنها كانت تقام بشكل شبه يومي تقريباً أم هذا العام فربما يكون الأسوأ على المدرهة فلم نصادف أي مدرهة تواصلت لأيام متتالية في التدره، بل كان يغلب عليها إن فتحت الطابع المزاجي بمعنى ساعة كل ثلاثة أيام أو ربما ساعتين والمداره التي فتحت هذا العام قليلة، بل أن بعض الحجاج ممن نعرفهم ذهبوا إلى الحج وعادوا دون أن نعلم بذلك إلا عند عودتهم وربما بعد عودتهم ذهبوا بصمت وعادوا بصمت، وربما تكون النساء أكثر إقبالاً على التدره من الرجال هذا العام حيث يتم تدره النساء في المداره التي توجد على أحواش بعض المنازل.

نصوص التدره

■ وأورد الأخ سعودي العلافة عدداً من النصوص والأهازيج الشعرية التي تؤدى بأصوات ملحنة وفي أوقات معينة، ومن أبرز تلك الأهازيج عندما خرج الحاج من بيته متوجهاً إلى الحج :

وقد طلعت المدرهة
وفي حفاظ رحمن
وفي حفاظ واحد كريم
يا جل ما له ثاني
لو تبسرونا يا اهلنا
كيف خرجت الحجاج
كيف خرجت الحاج الكريم
يناجي الرحمان
رجع من الشارع يقول
في ذمّتش جهالي
في ذمّتش زرع الكبد
أما الصغير غالي
لو تبسرونا يا اهلنا حين قامت الطيارة
حسّيت قلبي حين رجف ودمعتي سياله

■ أما حين يعود الحاج أو أوشك على العودة بعد أن أكمل المناسك :

يا حجنا يا حجنا لاوين قدك وين عادك
قال عادنا وسط الحرم وملتوي لزمزم
يا حجنا يا حجنا قوم اقطب الشدادي
قم شد لك بين اخوتك وبين زرع أكبادك
يا حاج عابد يا شلي
اللّه يعودك سالم
اللّه يعودك مثل الرعود
مثل السحائب السود
لو تبسرونا يا اهلنا وسط الحرم ماحلانا
مخلسين باجسادنا بناجي الرحمن

■ وللمدرهة نفسها أهازيج تخاطبها، منها :

يالمدرهة يالمدرهة مَنْ ركبش عشية
مَنْ ركبش على القمر والشمعة المضية
قد جيت أدّره واعتني ومن بلاد بعيدة
ومن بلاد خلف الجبال يا ريت وهي قريبة
يالمدرهة يالمدرهة ومال صوتش واهي
وقالت أني واهية وماحدا كساني
وكسوتي رطلين حرير واربع خشب رماني
يالمدرهة يالمدرهة مَنْ ركبش يالمدرهة
اللّه يعوده سالم ... اللّه يعود مثل الرعود ... مثل السحاب السود